المجلة العراقية للبحوث الانسانية والاجتماعية والعلمية
Iraqi Journal of Humanitarian, Social and Scientific Research
Print ISSN 2710-0952 Electronic ISSN 2790-1254
العدد 12 A آذار 2024
No.12A March 2024

الحب والحزن في شعر العصبة الاندلسية: دراسة في الحجاج النفسي

م.م. حكيم حسين سوادي
أ.د فائز هانو الشرع
الجامعة المستنصرية، كلية الآداب

ملخص:

الحجاج إجراء خطابي يتمثل في بعدين، بعد ذهني يرتبط بالاستدلالات العقلية، وبعد لغوي يرتبط بالأساليب اللغوية: النحوية أو الصرفية أو الصوتية أو البلاغية. وله بعد نفسي أيضاً يدرك عبر التمثل اللغوي للمجزات الادبية النثرية أو الشعرية، عند النظر الى نسيجها اللغوي وما ينطوي عليه من استدلالات. وهذه الابعاد يمكن أن يوظف بعضها في سياق كلامي معني للتأثير على المتلقي بدرج حجج من شأنها اقناعه، بحيث يمكن أن يتقبل الفكرة المُنضوية في الكلام. وفي هذا البحث تسلط الاضواء على الاسلوب النفسي الذي يتجلى به الحجاج عبر عاطفتي الحب والحزن في شعر العصبة الاندلسية، وكيف يأخذ الحجاج دوره في إقناع المتلقي.

الكلمات المفتاحية: الحجاج، العصبة الاندلسية، الحجاج النفسي، عاطفة الحب والحزن.

"Love and sadness in the poetry of the Andalusian League:A study in the psychological pilgrims"

A.L. Hakim Hussein Sawadi
Prof. Dr. Fayez Hano Al-Sharaa
Al-Mustansiriya University, College of Arts

Summary:

Al-Hajjaj is an original creation in two dimensions, after remembering the link to precise inferences, and after it is linked to linguistic methods: grammatical, morphological, phonetic, or prosodic. It has a final psychological dimension through the linguistic representation of literary pieces of prose or poetry, when looking at their linguistic texts and the inferences based on them. These dimensions can participate with each other in a specific verbal agreement to influence the recipient within limits due to the presence of a widespread mask, so that the idea embedded in the speech can be accepted. In this research, the spotlight is shed on the psychological style in which Al-Hajjaj manifests himself through the emotions of love and sadness in Andalusian poetry, but Al-Hajjaj prevents his role in exploiting the recipient

Keywords: Al-Hajjaj, the Andalusian League, psychological Al-Hajjaj, the emotion of love and sadness

المقدمة:

هذا البحث يدرس الحجاج النفسي في شعر العصبة الاندلسية، شعر المهجر الجنوبي، عبر ظاهرتي الحب والحزن بوصفهما ظاهرتين نفسيتين يمكن بهما يؤثر صاحب الخطاب على متلقيه، ولذلك جاء عنوان البحث متسماً بـ((**الحب والحزن في شعر العصبة الاندلسية: دراسة حجاجية**)). وقد قسم البحث على فقرات تم في كل منها بيان مفصل من مفاصل اركان الموضوع، بدءاً من بيان المفهوم اللغوي

والاصطلاحي للحجاج، ثم بيان رؤية موجزة جداً عن شعر العصبة الاندلسية، وأهم السمات النفسية له، ثم بيان الاجراءات النفسية للحجاج في نماذج مختارة من الشعر. عبر ظاهرتي الحب والحزن، ومن الحب تم رصد حب الامومة وحب الحبيبة، ومن الحزن تم رصد الحزن على فقد الاحبة والحزن على الماضي. وذلك كله وفق المنهج الوصفي التحليلي الذي يتم فيه وصف الظاهرة في سياقها الشعري ثم تحليلها ليتبين البعد الحجاجي النفسي فيها بشكل واضح. ثم ختم البحث بخاتمة تمت الاشارة فيها الى أهم النتائج التي توصل اليها البحث.

مفهوم الحجاج:

الحجاج في اللغة يأتي بمعنى الدليل والبرهان والغلبة بالحجة، قال ابن منظور: ((حججتهُ أي غلبته بالحجج التي أدليت بها... وحاجةٍ محاجةٍ حجاجاً نازعه الحجّة... والحجّة الدليل والبرهان))[1]، فيكون معناه محاولة الغلبة في النزاع والخصومة بواسطة الإدلاء بالحجّة والدليل، للحمل على القبول عبر الأدلة والحجج لأجل تحقيق الرضا والاستمالة[2]. وهذا المعنى العام هو المعنى الجامع للحجاج في المدلول اللغوي عند إرادة معنى المحاججة.

أمّا الحجاج في الاصطلاح: فهو توجيه خطاب الى متلق ما لأجل تعديل رأيه أو سلوكه أو هما معاً، وهو لا يقوم إلا بالكلام المتآلف من معجم اللغة الطبيعية[3]، فيتحقق من اللغة المشتركة بين طرفي الحجاج ، وهو أيضاً كلّ منطوق موجّه إلـى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها[4]، فيكون قصد الإفهام عنصراً محورياً فيه، والحجاج أيضاً هو:((إجراء يستهدف من خلاله شخص ما حمل مخاطبه على تبني موقف معين عبر اللجوء الى حجج تستهدف إبراز صحة هذا الموقف أو صحة أُسسه))[5] ومن التعريفات العامة للحجاج قول الدكتور حافظ اسماعيلي علوي:((على الرغم من كل الاختلافات التي تحملها التعريفات التي أعطيت للحجاج فإنها تكاد تتفق على أنّ الحجاج هو بذل الجهد لغاية الاقناع، إنَّه طائفة من تقنيات الخطاب التي تقصد استمالة المتلقين الى القضايا التي تعرض عليهم أو الى زيادة درجة تلك الاستمالة))[6]. وعليه بحسب هذا الوصف العام يكون معنى الحجاج توظيف حجج وتقنيات في الخطاب بقصد استمالة المتلقين نحو قضية ما، ومحاولة إقناعه بها، وتمثل اللغة وأساليبها ووسائلها الأداة الأبرز لتجسيده، وبذلك يتفق المعنى اللغوي للحجاج مع المعنى الاصطلاحي.

التعريف بالعصبة الأندلسية وسماتها النفسية:

تعاضدت الظروف الحياتية والسياسية والاجتماعية في أن يتجه بعض الشعراء العرب من بلاد الشام الى اعتناق فكرة الهجرة والاغتراب عن أوطانهم، فقسوة العيش والاضطهاد الفكري والسياسي وغياب العدالة الاجتماعية، كانت عوامل دافعة نحو الغربة الجسدية والروحية، ولأن الأدباء ولاسيما الشعراء منهم يرزحون تحت سطوة الانفعال وجذوة المشاعر، تكتنز داخلهم طاقة التعبير، والشعور الحاد بالمشاركة والتفاعل بما يقع من أحداث، تحثهم في ذلك أرواحهم ونفوسهم المتقدة المضطرمة، وعلى وفق ما سبق ولدت بذرة الأدب العربي في المهدر الجنوبي في رحلة شاقة كان حصادها قوافل أدبية متتابعة، وتراث شعري عظيم، وأجيال من المثقفين، باتت تتذوق الأدب وتقبل على جيده، حتى استوى عوده

---

(1) لسان العرب: 779/1(حجج).
(2) ينظر: في أصول الكلام وتجديد علم الكلام، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، ط3، الدار البيضاء، 2007م: 38.
(3) ينظر: مدخل الى الحجاج، محمد الولي، عالم الفكر، عدد2، الكويت، 2011م: 11/40.
(4) ينظر: اللسان والميزان او التكوثر العقلي، طه عبد الرحمن، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2006م: 226.
(5) دروس الحجاج الفلسفي، أبو الزهراء، مجلة الشبكة التربوية الشاملة فيلومر تيل الالكترونية: 5.
6- الحجاج مفهومه ومجالاته : اشراف د.حافظ اسماعيلي علوي ، ط1، عالم الكتب الحديث ،الاردن ،2010، ج1، ص4.

وأينعت ثماره ولذّ شرايه[7]، فكان لهؤلاء الرواد من قوافل الماهجرين –ولاسيما ممّن كان همّهم الادب والثقافة- فضل زرع بذرة الفكر والادب والثقافة العربية، فمن الجمعيات الادبية الصغيرة التي أسسوها لتعقد فيها حلقات الادب والمواهب الادبية مروراً بإنشاء بذرة صحفية تم تغذيتها بالأدب الصحيح وبالدعوة الخيّرة، وانتهاءً بإنشاء الجمعيات الأدبية والنوادي والمنتديات، فكانت مسرحاً لانطلاق أدب عربي خالص يقرع أسماع العالم المادي الآخر، وإقامت الحفلات والمهرجانات المختلفة أدبية كانت أم اجتماعية أم قومية[8]، ولهذه الأسباب وعلى هذا النهج ولدت فكرة تكوين عصبة أدبية بمسمى (العصبة الأندلسية) لتكون منبراً أدبياً يضم تحت لوائه الصوت العربي بمختلف توجهاته وميوله، ولتذوب تحته الخلافات الانتمائية، ويُعد الشاعر الناقد(شكر الله الجر)(*) رائد هذه الفكرة التي أخرجها الى حيز الوجود الشاعر المهجري(ميشال معلوف)(*) بما بذله من مال سخيّ، فاجتمعت حوله نخبة من الأدباء المهاجرين ومن بينهم صاحب الفكرة في(ريودي جانيرو)، حيث مقر الحلقة، وفي الخامس من كانون الثاني عام1933م عقد الاجتماع التأسيسي للعصبة، واتفق المجتمعون على اسم (العصبة الأندلسية) تيمناً بالدولة العربية في الأندلس ثم انتخبوا بالإجماع ميشال معلوف(رئيساً) و(داود شكور)(*)نائباً للرئيس، و(نظير زيتونة)(*) أمين السرّ، و(يوسف البعيني)(*)أمين الصندوق، و(جورج حسون معلوف)(*) خطيباً، انضم الى عضوية التأسيس آخرون من أعلام هذه المدرسة المهجرية، وهم في ذلك متفاوتون في ثقافاتهم وقدرتهم اللغوية والتحصيل الفردي والعلمي، وعلى الرغم من عدم امتلاك الكثير منهم ثقافة واسعة، فإن فطرتهم الأدبية وحماستهم والتعبير عن أنفسهم أهلّ هذه العصبة خلال الثلاث عشرة سنة التي صدرت فيها مجلة العصبة لإنتاج أدب له قيمته التي لا يمكن إنكارها في أدبنا العربي وله مميزاته الخاصة التي تسلّح بها[9].

([7]) ينظر: الناطقون بالضاد في امريكا، معهد الشؤون العربية الامريكية في تيويورك، تر: البدوي الملثم، المطبعة التجارية الاهلية، بيروت، 1956م: 286.

([8]) ينظر: الملامح الشرقية في شعر المهجر-العصبة الاندلسية أنموذجاً-، حكيم حسين سوادي آلبو نصّار، رسالة ماجستير، جامعة بيروت العربية، 2013م: 4-6.

(*) شكر الله الجر: ((شاعر لبناني من قرية يحشوش، هاجر الى البرازيل عام 1923 للتجارة مع أخيه(عقل) وانقطع الى الصحافة عام 1930 فأصدر مجلة(الاندلس الجديدة) شهرية، وجريدة (الحرية) اسبوعية، الى عام 1942، وعمل في تأسيس(العصبة الاندلسية) في (سان باولو) فعاشت 20 سنة، وصدر من مؤلفاته الشعرية(الروافد، وزنابق الفجر، وأغاني الليل، وقرطاجة، وبيروق ورعود، ومن خوابي الزمن) وطبع من كتبه النثرية(نبي أورفليس جبران خليل جبران) و(المنقار الأحمر) في النقد ورواية(الشبح الابيض) ونشر في مجلة الأديب(تراجم) لبعض المهجريين، وعاد الى لبنان عام 1964 وتوفي في جبيل)). الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط15، (د.ت): 7/3.

(*) ميشال المعلوف(1889-1942): ((أديب، ناظم، ثائر،، ولد في زحلة بلبنان في الاول من تشرين الثاني وهاجر الى امريكا الشمالية سنة 1910م، وبعد بضعة أشهر رحل الى البرازيل، وساهم في تأسيس العصبة الاندلسية، وتوفي ببيروت في صيف 1942م)). معجم المؤلفين، تراجم مصنّفي الكتب العربية، عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1993م: 64/13.

(*)داود نقولا شكور: ولد في حمص سنة 1893م، وقد تعلم في المدارس الارثوذكسية بحمص، هاجر الى البرازيل سنة 1908م ثم غادرها لمصر سنة 1909م وعاد اليها سنة 1912م، كان من المؤسسين الأوائل للعصبة الاندلسية، حيث عقد الاجتماع التأسيسي في مكتبه التجاري، توفي في(سان باولو) سنة 1963م،، غزير الأدب والعلم، عميق التفكير، رقيق العبارة، طلق اللسان، خطيب مفوّه. للمزيد ينظر: www.wikipedia.com

(*)نظير بن عيسى زيتون الحمصي(1900-1967): حمصي المولد والنشأة والوفاة، تعلم في المدرسة الروسية والكلية الأرثوذكسية، هاجر الى سان باولو في البرازيل قبيل الحرب العاملية الاولى للعمل في التجارة، وكان من مؤسسي العصبة الاندلسية، له مؤلفات وتراجم ومجموعة من الخطب، ينظر: الاعلام، الزركلي: 35/8.

(*) يوسف البعيني(1908-1949): ((يوسف بن نعمة عبد الله البعيني، أديب، ولد في مدينة بشمالي لبنان، واختير عضواً في العصبة الاندلسية بسان باولو في البرازيل وتوفي بها. معجم المؤلفين))، عمر رضال كحالة: 339/13.

(*) جورج حسون المعلوف(1863-1965م): أديب وشاعر وخطيب، وناقد ادبي، وباحث لغوي، ومترجم لبناني مهاجر، أجاد لغات اجنبية عدّة، من مؤسسي العصبة الاندلسية، ينظر: موسوعة الفراشة:
www.onlinebeutterfly .com

([9]) ينظر: الملامح الشرقية في شعر المهجر-العصبة الاندلسية أنموذجاً-، حكيم حسين سوادي آلبو نصّار: 7-8.

كان لشعراء العصبة الأندلسية وشعراؤها آثار بارزة على الصعيدين العربي والأجنبي، وجعلوا من نتاجهم ولاسيما على الصعيد العربي رسالة يجب أن يقوموا بتدعيمها ونشرها، إذ عملوا جاهدين بمساندة قضية الحرية في الوطن الأم، والعمل على تخليصه من قبضة الاستعمار والرجعية، وإعادة بنائه من جديد ليستعيد مجده القديم، فوضّحوا ظروف الوطن السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وعرض مطالبه العادلة في الحرية والاستقلال والوحدة الدينية والاصلاح الاجتماعي ومحاولتهم كسب أنصار لقضية الوطن من هؤلاء الأجانب، فلم يألوا جهداً في عقد الندوات والاجتماعات وإقامة الحفلات في شتى المناسبات لتلقى فيها القصائد الوطنية والخطب الحماسية التي تتناول بالشرح والتفسير قضايا بلادهم، فضلاً عن محاولتهم المحافظة على كيانهم العربي في المهجر، والمحافظة على اللغة العربية وعدم السماح بذوبانها في لغة البلاد الأصلية، لذلك نراهم يحرصون على تجديدهم دون المساس بسلامة اللغة نحواً وصرفاً، وعدم الإخلال بالشكل التقليدي للقصيدة العربية، مع الحرص على الاكثار من الصحف والمجلات التي تصدر بلغتهم لتكون وسيلة دائمة للاتصال باللغة ولاسيما بين المهجريين الذين تصرفهم أمور الحياة اليومية عن متابعة الدرس والتحصيل، ومحاولة إدخال اللغة العربية في الجامعات البرازيلية[10].

وكان رائدهم في ذلك مجلة(العصبة الأندلسية) التي حملت عبئاً كبيراً من أهداف وطموحات شعراء وأدباء المهجر الجنوبي، فهي منذ صدورها عام 1935م كانت لسان حال دعاتها، وهي وإن غلب عليها الطابع الأدبي إلاّ أنها استطاعت أن تحقق الى حد كبير أهداف العصبة ولاسيما نقلها الى الشرق العربي أدب المهجر والى المهجر أدب الشرق، فالتقت على صفحاتها أنبه الأقلام من أرجاء الوطن العربي في محاولة من التأثير والتأثر وتدعيم اللغة العربية ونشرها[11]، و((الحق أن المحيط الأدبي في المهجر البرازيلي لم يعرف قبل إنشاء(العصبة) أن للأدب وجهاً غير الوجوه التي عرفها فاستقبحها وأنكرها... وبذلك رفعت مكانة الأدب في الأذهان وأعلت شأنه في النفوس وشادت له الهياكل في القوب، فعادت للأدب هيبته وكرامتـــه

في نفوس كانت قد مجّته وعافته))[12].

وعلى وفق هذا تركّزت في نفوس شعراء المهجر الهوية العربية ومبادئ القومية والتراث، إذ غدت ملاذاً ثقافياً وحصناً روحياً، فآمنوا بهما قولاً وعملاً، بعيداً عن طور الشعارات الى ميدان الفعل، بل إنها أضحت فكرة شاملة لوجودهم، تتماشى في دمهم، ومع وقع خطواتهم، فقضايا الأمة الكبرى وعلى رأسها قضية فلسطين، كانت شغلهم الشاغل، ودافعهم العروبي المحض[13].

أهم السمات النفسية في شعر العصبة الأندلسية:

عاطفة الحنين بدوافع المحبة:

برز الحنين الى الأم(الوطن) في شعر شعراء العصبة الاندلسية ، وهكذا كان طيف الوطن البعيد مبعث الحرارة في نفوس المغتربين والبلسم لجراحهم[14]، وقد اتضح هذا الحنين في معجم شعرهم وموضوعاته، وقد((ذابت قرائحهم في أشعارهم حتى بتنا كأننا نسمع أنين نواعير العاصي، وهديل حمائم صنين، وأغادير عنادل الأرز، وأنغام رعاة الماعز، ورنين نواقيس القرية، وتكبير مآذن الفجر)) [15].

([10]) ينظر: العصبة الاندلسية- هجرة الادب العربي الى البرازيل-، نعيمة مراد محمد، منشأة المعارف، مصر، (د.ت): 93-97.

([11]) ينظر: شعراء العصبة الاندلسية في المهجر، عمر الدقاق، مكتبة دار الشروق، بيروت، ط1، 1973م: 139-141.

([12]) ذكرى الهجرة- رسالة المهاجرين الوريين واللبنانيين الى اخوانهم المتخلفين-، توفيق فضل الله ضعون، سان باولو، البرازيل، 1945م: 355.

([13]) ينظر: المصدر نفسه : 363.

([14])ينظر: شعراء العصبة الاندلسية، عمر الدقاق: 189.

([15]) المصدر نفسه: 193.

الميول القومي:

يبرز الميول القومي عند شعراء المهجر وكأنه قطعة من الأرض، ترسم حدودها اللغة العربية، فإذا هي تحدها من كل اتجاه، مع ما يرتبط بهذه اللغة من عوامل مشتركة متعاضدة تشكل عند شعراء المهجر جغرافيا وعقيدة شعرية لا محيد عنها، فعاطفة العروبة، وصدق التعبير عنها، والحرص على نصرتها، تقع في صلب الايمان العروبي عند شعراء هذه الجماعة، لذلك وقفوا في اشعارهم على مناهضة الدعوات المعارضة لها، وعلى مقارعة أعدائها من الفئات الاستعمارية والرجعية والدعوة الى الثورة عليهم والتخلص منهم، فسمعناهم من وراء البحار يرسلون قصائدهم الملتهبة شواظاً من نار تنصبُّ على الخونة وتلهب حماس الغيورين المخلصين[16].

الإغتراب المنطوي على الحزن:

يبقى الاغتراب الذي سببته الهجرة بالنسبة الى الشاعر المهجري عاملا نفسياً أثر فيه وجعله يمزج تراب وطنه مع فكره وعاطفته، فكان صدى ذلك جليّاً واضحاً فيما نظّمه شعراء العصبة الأندلسية، فشجت نفسه وأزعجته عن وطنه، متألمة تتلقى في داخلها مشاعر السخط والنقمة على أسباب من هجّروها، كاشفة عن نقد جارح لعيوب الوطن ومساوئ المجتمع، فضلاً عن مناجاة البلاد وأهلها، كلّ هذا كان ينمي الذات الرومانسية المتميزة في أعماق تلك النفوس الشاعرة فإذا هي تشعر بالغربة عن وطنها وسط المكابدة في ديار الغربة وثقل العمل والعيش في مجتمع غريب من الصعوبة الاندماج معه[17]، ومن هنا ((كان شعور أخوان (العصبة الأندلسية) حاداً تجاه لغتهم، وبالتالي تجاه قوميتهم ووطنهم، لقد غرّد شاعرهم في ذلك الوطن الغريب من طاب له التغريد، ولكن تغريده كان في كثير من الأحيان ينطوي على الأسى))[18].

مظاهر حجاج الحب والحزن عند شعراء العصبة الاندلسية:

الحجاج بعاطفة الحب:

الحجاج النفسي يتمثل في عاطفة الحب، فهي حجة شعرية نفسية لا يشترط فيها إفادة ظن راجح مقبول، إلا أنها تشتمل على ما يتلاعب بمشاعر المخاطب النفسية فيتأثر بهما ويستجيب لمضمونها حتى وإن كان عالماً فكرياً بعدم صحتها، فيستعملها لتحريك مشاعر الرغبة والرهبة والاقبال والنفور ، والمخاطب تتحرك مشاعره وفقها، وعلى هذا النوع من الحجج تعتمد صناعة الشعر والتحكم بمشاعر المستمعين تأثراً عجيباً لا ينكر[19].

فعاطفة الحب عند شعراء المهجر هي جمال يطلون عبر نافذته على العالم ليوافق تجاربهم الشعرية على تنوعها أمام صور الحياة المختلفة، فالحب عند الشعراء المهجريين جوهر الحياة ورسالة انسانية تفتح قلب الشاعر على الوجود ليفيض من ذاته على الانسانية، أما الحب بمعناه الخاص الذي يربط بين الرجل والمرأة فهو يصدر من طبيعة نظرتهم الكلية الى الموجودات جميعاً بما يملكون من احساس عميق بوحدتها في المرأة والشمس المشرقة والنهر والجدول والربيع المزدهر وغيرها من الموجودات[20].

1-عاطفة حب الام:

عند شعراء المهجر تحديداً جاءت الأم والأمومة مصدر وحي وموضع تقديس واحترام نتيجة اتساع غرض الحب عندهم، فضلاً عن ارتباط هذه العاطفة في أشعارهم بالحنين الى الوطن، إذ جاء شعر جماعة العصبة الأندلسية حافلاً بهذا النوع من الشعر، لأنهم ((يصورون حزن الأم على أولادها البعيدين عنها،

([16]) ينظر: الشعر القومي، عزيزة مريدن: 367.
([17]) ينظر: شعراء العصبة الاندلسية، عمر الدقاق: 155-157.
([18]) المصدر نفسه: 171.
([19]) ينظر: الحجاج لدى شعراء المهجر الشمالي(الرابطة القلمية)، محمد صالح ارخيص، اطروحة دكتوراه، الجامعة المستنصرية، 2018م: 6.
([20]) ينظر: المعجم الشعري عند جماعة المهجر: 71.

فهي لهم الصدر الدافئ الحنون، وهم بحاجة اليها لأنها رمز الأمان الذي افتقدوه، فالشوق الى الأم هو رمز الحنين الى الوطن واللّوذ بها يعبر عن نزوع النفس المعذبة القلقة الى الطمأنينة والراحة والأمان)) [21].

ومن تمثلات عاطفة الأمومة في نظم شعراء المهجر، ما طالعنا الشاعر(عقل الجر)[*] في قصيدته (اليتيم)، فهي قصيدة مؤلمة موجعة تفيض بمشاعر الأسى والحزن، يقول[22]:

مَنْ لطرفٍ يرى اليتيمَ الصغيرا ليلةَ العيدِ كيف بات حسيـــــــــــرا

يبصرُ الناسَ في مراحٍ ورغـــــدٍ ويرى نفسه شقياً فقيـــــــــــرا

كم أصابَ الصغارَ كعكاً وحلوى وأصاب العراءَ والزمهريـــــــــــرا

كلُّ ثوب على صغيرٍ جديـــــــــدٌ ما خلا ثوبه العتيق الحقيـــــــــرا

قد يراه الطوى وشدَّ عليـــــــــه أنَّ عند السوى طعاماً كثيـــــــــرا

ما الذي عمَّرَ المنـــــــازلُ يا أمُّ وأجرى الطعامَ فيها غزيـــــــــرا

.....

ما الذي فرق الحظوظ فهـــــــــذا بات عبداً وذاك أميـــــــــــــرا

أكبرت أمُّهُ السؤالَ وقالـــــــــــــتْ ليس فهم الحياةِ يا ابني يسيرا

غلب الظلم في الحياة على العدلِ وصار الأخاءُ أمراً عسيـــــــــرا

فاسترق القويُ فيهم ضعيفـــــــــاً واستباح الكبيرُ منهم صغيـــــرا

يعني الشاعر في أبياته أعلاه يتيماً مطلقاً يبصر الصغار الآخرين في العيد سعداء يأكلون الحلوى بملبس جديد، أما هو فقد أصابه البرد والفقر والعري والجوع، فراح الى أمه يسألها ((إنها أسئلة تشير الى ما بين أفراد البشر من تفاوت في الحظوظ واختلاف في المراتب، وكأننا بالشاعر يهدف من ورائها الى لفت النظر الى ضرورة العمل على المساواة او على الأقل التقريب بين الطبقات الاجتماعية))[23].

وفي سبيل هذا المقصود كخطاب حجاجي يتكيء الشاعر على اللغة المناسبة، والايقاع المجانس لعاطفته وحالته الشعورية الانفعالية، فأسلوب الطلب بصيغة الاستفهام كان محور الشاعر في حجاجه لإثارة عقل المتلقي وانتباهه وكسب ميوله، وعاطفته عبر أدوات الاستفهام(مَنْ، وما) مؤكداً على اسم الاستفهام(ما) وهو يستفهم به عن غير العاقل مطالباً الإيضاح والجواب عبر تقديم الحجج المضادة، فالعاطفة تبني عقيدة وتهدم أخرى ليأتي الجواب من أمّه بغلبة الظلم على العدل، والقوي والغني على الضعيف والفقير، وهنا تحدث الحجة الاقناعية عبر صوت الأم المتدفق كاليقين، وكخبرة حياتية اجتماعية هي مخاض تجربة طويلة من الألم والمعاناة، إذ تفصح عن قوانين الحياة الظالمة التي أنكرت حكمة الله في العدل والمساواة.

يتخذ الشاعر من مخاطبة الأم أسلوباً لغوياً يحاول بوساطته هدم الساكن المستبد وإثارة الحجج ضده وإعادة صياغة العالم متخذاً من العاطفة الرقيقة خطاً يسير بموازاة اللغة الطلبية الاستفهامية والإيقاع

([21]) شعراء العصبة الاندلسية في المهجر، عمر الدقاق: 189.

([*]) ترجم له: 35.

([22]) الديوان: 49-50.

([23]) القومية والانسانية في شعر المهجر الجنوبي: 487.

الهادئ الرقيق الحزين الباعث على شكوى الجدال والسؤال، مستنداً في ذلك على الامتداد الصوتي الساكن الخافت لحرف(الياء) الملازم لجميع الأبيات وقوافيها مع حرف روي دال على الاطلاق الصوتي الحزين متمثلاً بحرف(الألف) وما فيه من امتداد صوتي يجانس طبيعة العاطفة المشتكية المحاججة، إن دور الأم هنا دور محاور يكشف الأسباب والعلل، ويحلل الوقائع بخبرة جدال وإقناع وبرهان حتمي لا جدال فيه ولأنها في القصيدة رمز لمعادل موضوعي حواري لعاطفة الأمومة التي تسد تساؤلات اليتيم وحاجاته الانفعالية، ومعوضة عن الفقد والتيه والاضطراب النفسي الذي يشعر به اليتيم بصورة مطلقة.

ويأخذنا الشاعر (شفيق معلوف)(*) في قصيدته الى مرافيء عاطفة الأم المشبوبة المتقدة، يقول [24]:

طالَ بيَ الشوقُ وَلَجَّ الظمـــــأ

إلى ليالٍ في أعالي الكـــــــروم

يُغري بها البدرُ صبايا الحمى

كأنّما البدر خِلالَ الغيـــــــــوم

جَمَّعَ أنوارَ جميعِ النُّجـــــــــوم

وصبَّها من كوّةٍ في السَّمـــــــا

طالَ اشتياقي لرفيف الجفونْ

يَخْفُقْنَ كالدُّلْمجِ في المعصمِ

والشوقُ مشبوبُ اللّظى والسكونْ

ليلاتُهُ ساهيةُ الأنجـــــــــــــــمِ

يتمتمُ الألحانَ فيها فمـــــــــــي

من قبلِ أن يعزفها المنشدون

.....

إذ ذاك آلامي وذكراهـــــا

تطوي أُمِّي حين ألقاها

إنْ طوقتني بذراعيهـــــــا

لقيتُ في بؤبؤِ عينيهـــا

ألذَّ أيامي وأحلاهـــــــــا

يفصح عنوان القصيدة عن مضمونها، فالعنوان ثريا النص، وهو في حد ذاته إشهار خطابي إخباري لما يعانيه الشاعر، ليلقي الشاعر بعد ذلك بسلال جملته الاخبارية التي تلي العنوان ليؤطر الدلالة بصورة أعمق وأكثر إقناعاً للمتلقي، إذ يلج عبر كوّة خبره المنقول الى بيان عاطفته وانفعالاته الصادرة من نفس

(*) ترجم له: 23.

(24) سنابل راعوث، شفيق معلوف، قصائد مختارة، دار مجلة شعر، بيروت، (د.ت) : 171-176.

مغتربة روحياً وجسدياً، مأزومة باختلاف تضاريس المكان والعادات والوجوه، بما يشكل طابعاً يشترك فيه شعراء المهجر بصورة عامة، مشوباً بالعاطفة الصادقة المتشكلة عبر صور الطبيعة التي اتخذها الشاعر دليلاً ومصداقاً لما يعانيه ويكابده، فـ (البدرُ، والأنوار، وكوّة السماء، وخفق الدلمج، واللّظى، وبؤبؤ العين) جميعها معادل موضوعي ولوغوس خطابي ينفذ منه الشاعر الى صدق انفعالاته التي تومض في داخله في مقابل(الليل، والغيوم، والسكون، وآلام الذكرى)، فعبر الأضداد يقيم الشاعر دلالاته الخطابية الاقناعية بشعور متدفق رومانسي هادئ، عطف عليه ذلك السكون المتجسد في القافية الساكنة المقابلة لانبلاج حنين تفقه الشعري، وهنا تكتمل القيمة البلاغية للحجاج، إذ ((تتناول بلاغة الحجاج الخطاب باعتباره نشاطاً لفظياً يروم التأثير العملي في الآخر مستخدماً عملية الاقناع)) [25].

فالنص أعلاه اكتنز عاطفته الاقناعية الحجاجية ككتلة واحدة لفظاً وايقاعاً لإحداث انفعال التجاوب عند المتلقي بما يعانيه من مكابد الغربة في مواجهة الحنين الى الوطن وأيامه ولياليه وأهله، وعلى فق هذا واستكمالاً لبراهينه الانفعالية الحجاجية يتخذ الشاعر من الأم في نهاية القصيدة شاهداً يؤصّل فكرته عبر شخصية الأم البعيدة، الجذر الممتد في الأرض، وبؤرة مشاعر الحنين عند كل انسان، فعاطفة الأم هنا مركز الدلالة، وبؤرة الصورة الشعرية المختزلة للقصيدة وخاتمة كل أنماط المجازات الدالة على موضوعة الحنين، فعند الأم تقف الانزياحات اللغوية تاركة المجال للتقريرية الخطابية الماثلة في ذهن كل انسان، والمتمثلة بكون الأم حضناً حانياً، وصدراً دافئاً، وعاطفة من الراحة والأمان والسلام الروحي، ووفقاً لهذا كانت هي المعادل الموضوعي الصارخ للوطن المفقود الذي يخاطبه الشعراء عن بعد بعاطفة الاغتراب والشوق والحنين.

2-عاطفة حب الحبيبة:

حب الحبيبة عند الشعراء المهجريين مثّل شوقاً وتعطشاً لسعادة مفقودة تعلق بالجمال الذي كان وسيلتهم في البحث عن الفضيلة وعفة النفس وكبح جماح الشهوات وثمرته الأنس والألفة والصداقة، وشعارهم في ذلك أن النفس الانسانية مصدرها واحد، في نفس عليا واحدة هي مثالها المطلق الذي انفصلت عنه وهي((لا تزال تحن إليه فإذا رأت ضلاله في شخص أقبلت عليه واتصلت به فكان الحب))[26]. وعلى وفق هذا نجد تلك الروح الحالمة عند شعراء المهجر وقد ملأت أركان الوجود حباً صادقاً طاهراً نقياً ابتداء من حب المرأة الحبيبة وانتهاء بالطبيعة وصور الوجود والتي كانت عندهم عالماً مشابهاً للمرأة ما دام مصدرها الجمال الخلاّق الذي يهذب النفس ويخرج العقل من المادة الى السمو الروحي.

ومن تمثلات شعر الحبيبة وعاطفته المتقدة عند شعراء المهجر الجنوبي قصيدة(خمر الأحاديث) للشاعر(فوزي المعلوف)(*)، قال فيها[27]:

لفَفْتُ ذراعي حولَ خصرِ حبيبتي كما التفَّ حولَ الصخرِ عاشقةُ النهرُ

فمالتْ إلى عنقي فَمِلْتُ بلَهْفةٍ إلى عُنْقِها والخصرُ يدفعُهُ الخَصْرُ

وكُنّا، وجسمانا لصيقانِ واحداً وصَدْرا كلينا في اعتناقهما صَدْرُ

وقبَّلتُها والنفسُ منِّي مشوقةٌ وما زلتُ حتى ذابَ بالقُبلِ النَّحْرُ

وما هي إلاّ برهةٌ فمشى بنا نُعاسٌ فنِمنا نومَ من نالهُ السّكْرُ

([25]) في بلاغة الحجاج- نحو مقاربة بلاغية حجاجية لتحليل الخطابات، محمد مثبال، دار كنوز المعرفة، الاردن، ط1، 2018م: 19.

([26]) الحب العذري عند العرب، شوقي ضيف: 10.

(*) ترجم له: 25

([27]) الاعمال الشعرية الكاملة: 163.

سكرنا ولم نشربْ من الخمرِ جَرْعةً ولكنْ أحاديثُ الغرامِ هب الخَمْـــــــــــرُ

ولم نخشَ فيما كانَ لومةَ لائـــــــــمٍ فَمِنْ حبّنا العُذريّ قامَ لنا عُـــــــــــذْرُ

يتكيء الشاعر فوزي المعلوف في النص الشعري أعلاه على موضوعة الخمرة كمادة خام في قصيدته ليرتفع عبرها عن القيود الدنيوية المادية وحباً في الصفاء والسمو الروحي، متصوفاً في الحب وقد تنزّه عن الآثام والخطايا، فهو كما قال في نهاية أبياته: (حبنا العذري)، فاتخذ من حب المرأة رمزاً يلج عبره الى هذه السمة التي انماز بها شعراء المهجر، فهذه الخمرة((خمرة معنوية وهي الخمرة التي ذكرها شعراء الصوفية وأرادوا بها خمرة الوجود))[28]، وبها يحدث الشاعر انزياحاً لغوياً ودلالياً في التقنيات الأسلوبية للقصيدة من أجل خلق معانٍ جديدة وصور ذات فضاءات متنوعة تنطلق من العرفاني الصوفي الى النفسي العاطفي فالواقعي الاجتماعي[29]، وبهذا الانزياح الدلالي تتحول المرأة الحبيبة مع العاطفة الجياشة التي ملأت أبيات النص التي وصلت حدّ الذوبان في الآخر، فما بين التفاف الذراعين، وميل العنقين، وانطباق الخصرين يلتصق الجسدان حد الذوبان والتوحد وما بين هذه شوق جامح، وقُبل مستعرة على النحر، والشاعر في هذه الصور جميعها يعلن اتحاده واندماجه بالوجود –وهي صفة لصيقة بشعراء المهجر- ارتفاعاً عن المادة والدنس الى فضاء السمو والنقاء وهو بهذا يقدم لنا أدلته الحجاجية التي اتخذ من الخمرة والحبيبة وسيلة لهما في سبيل إقناع المتلقي بفكرته ومبدئه الفني والانساني.

وفي تمثّل آخر يطالعنا الشاعر (فيليب لطف الله)[*] في قصيدته (الجمال المعبود) والتي تضوع عطور الاعاطفة والذوبان في الجمال الأنثوي، اذ قال[30]:

أنامُ وطيفك يغفو معـــــي فتنعَمُ روحي في مضجعـــي

أضعتُ حياتيَ أبحثُ عنكِ بشوقِ العظيم الى المرضعِ

وأعبدُ فيكِ إلهَ الجمـــــالِ وأجثوُ لتكوينهِ المبـــــــــدعِ

وأشربُ جامَ الهوى مترعاً فأسكرُ من جامكِ المتـــــرعِ

فلا قدرَ اللهُ لي صحـــــوةً فلذّةُ نفسيَّ أنْ لا أعِـــــــــي

يشعر الشاعر بالاستقرار الروحي وهذا ما دعاه الى استعمال البحر المتدارك ذي الايقاع الصافي التفعيلات، الهادئ الموسيقي، الدال على الثبات والاستمرار مع دوام المواصلة ليوازي في ذلك الفكرة المطروحة المتقنعة بالمرأة الحبيبة وعاطفة الحب، فنراه يخاطب امرأة مجهولة متخيلة ليس لها ذات واضحة سوى الضمير المتصل(الكاف) في (طيفكِ، وعنكِ، وفيكِ، وجامكِ) للدلالة على الحضور الفاعل للذات الأنثوية والالتصاق بها، لاسيما مع إضافة هذا الضمير الى الاسماء كآلية لغوية دلالتها((الهرب من الغربة كي يتخلص الشاعر من جوّها ولو لحين لعلّه يخفف من شدة وقعها على تفسه المتعبة فيجد في بعض الأشياء ملاذاً ينفس عن كربته))[31]، عبر التداخل معها في لذة المنام والطيف الى الحد الذي معه استعمل أسلوب الدعاء الخارج عن الفعل الماضي المنفي بـ(لا) النافية كي يبقى منعماً بلذة الجمال والسكر، ونلحظ هنا تحول صورة الشاعر من المكان الضيق المحدد(المضجع) الى المكان الواسع الفسيح

([28]) حضور الخمرة في شعر مظفر النواب، دراسة بلاغية، أفراح ذياب صالح، مجلة كلية التربية للبنات، المجلد 22، العدد 4، 2011م: 793.

([29]) ينظر: المصدر نفسه: 793.

([*]) ترجم له: 48.

([30]) شعراء من المهجر البرازيلي: 138.

([31]) الغربة في الشعر العراقي، فليح كريم الركابي، المركز العلمي العراقي، دار ومكتبة البقائر، بيروت، ط1، 2013م: 96.

المتخيل في الطيف والمنام الآخذ بيده الى صومعة الجمال الالهي المطلق وتكوينه المبدع للوجود وأشيائه ومنها المرأة الحبيبة، وفي ذلك فسحة روحية أصابت الشاعر او لعل الشاعر أرادها منها هرباً من غربته وعزلته وتكوره على نفسه وجسده داخا مخدعه ومضجعه حتى تمنى أن لا يصحو من هذا الحلم، و (لا يعي) عائداً الى الصحو وهمومه وآلامه، وعبر آلية التخيل الخطابي في النص يحاول الشاعر إقناعاً إيهام المتلقي بحصول اللقاء مع الحبيبة متوسلاً بالنداء عبر الضمير(الكاف)، وبالعاطفة الصادقة الممررة عبر اللغة ذات الطابع الرقيق الهادئ وبلاغة المتخيل، إذ((يعني الفعل البلاغي بناء الحجج والتأثير في المتلقي تأثيراً عملياً سواء بتعليمه او امتاعه او إثارة مشاعره))[32].

الحجاج بعاطفة الحزن:

كان لموضوعة الحزن ميدان واسع فسيح في الشعر العربي، وهذا ناتج عن الموت والفراق ومعاناة شغف العيش والفقر والاضطهاد، فارتبطت بالوجد والكآبة والحسرة والوجع. والحزنَ ضد السرور ويكون لفقد عزيز أو خوف من فقده أو مفارقته أو سفره وهو بمعناه أثر لوقوع مكروه أو همّ توقع نزوله وحدوثه[33]، وفي الشعر فإنه: ((حالة نفسية تتولد من عجز الفرد عن التوفيق بين القدرة والأمل اللذين يتعارضان فيشقى الفرد بهذا التعارض، فإن هذا الشقاء يصبح ضرورة يعبرون عنها بمرض العصر ويتخذون الشعر وسيلة لشكواهم والأنين منه، أو التمرد عليه))[34].

والشاعر العربي المعاصر استطاع خلال الفترة الرومانسية أن يجعل من الحزن إحساساً مصاحباً له في أغلب موضوعاته الشعرية لاهتمامه كثيراً بالتجربة الذاتية، فشاع في شعرهم رنات الأسى والحسرة والأنين والشكوى بطابع إحساس متناثر مبعثر نتيجة الاحساس بمحنة الذات الانسانية المعاصرة التي قامت على مشاعر الغربة والضياع والتمزق[35]، بعد الأزمات المتتالية التي حلّت بالوطن العربي ومواطنيه، فاهتزت أمام الشعراء معايير النظام والتوازن التي انتقلت من الواقع السياسي والاجتماعي الى واقع الذات والفن والقيم المعاصرة على القيم التقليدية التي انتقلت الى فنون الشعر، ولاسيما ما يتعلق منها بظاهرة الحزن، فتولدت مشاعر الغربة والضياع وطغى الشعور بالأسى والحزن وانتابتهم أحاسيس الألم والكآبة نتيجة احتدام الصراع بين القدرة والأمل، وبين الواقع والمثال، وهذا ما جعل الشعراء المعاصرين ينظرون الى ظاهرة الحزن كغرض شعري خاص يتجاوز النظرة التقليدية الفنية المتوارثة في دلالة ثابتة قارة في الذهن العربي الى عمل شعري مكتمل العناصر، ذي فلسفة خاصة، ورؤية رمزية وفكرية محاكية لفعل الاغتراب والتشتت والتمزق الذاتي متجاوزاً الحدود الجغرافية والثقافية كرؤية إنسانية عامة تعبر عن الانسان العربي بصورة شاملة[36].

ولم يكن شعراء المهجر الجنوبي بعيدين عن ظاهرة الحزن وأسبابها الآنفة الذكر، بل كانت واقعاً ذاتياً غلّف أغلب نتاجهم الشعري حتى غدت ثيمة هامة انماز بها، وخصيصة أسلوبية رافقته في أغلب دواوينهم الشعرية، وستحاول الدراسة في هذا الجزء منها تسليط الضوء على ظاهرة الحزن في نظم شعراء المهجر الجنوبي وما رافقتها من عاطفة في موضوعتين هما:

1-الحجاج بالحزن على فراق الاحبة:

([32]) في بلاغة الحجاج: 25.
([33]) ينظر: مصطلحات قرآنية، صالح عظيمة، دار المؤرخ العربي، ط1، بيروت، 1994م: 142.
([34]) الأدب ومذاهبه، محمد مندور، دار النهضة المصرية، القاهرة، (د.ت): 68.
([35]) ينظر: لغة الشعر العربي الحديث(مقوماتها الفنية وطاقاتها الابداعية)، السعيد الورقي، دار النهضة، ط3، بيروت، 1984م: 255-256.
([36]) ينظر: ظاهرة الحزن في الشعر العربي الليبي الحديث، أنيس السنوسي ميلود محمد، المجلة العلمية، كلية الاداب، جامعة طنطا، العدد 26، 2013م: 758-760.

يحزن الانسان ويتألم على الاحبة عند موتهم، بعد أن فقد مزاياهم، والشعراء أشد الناس انفعالاً وتأثراً بالموت، إذ وقفوا أمام هذه المسألة الانسانية ورثوا أحباءهم وكل من كانوا يهتمون لأمره بحسرة مع استسلام للقدر والمشيئة الربانية ونظام الحياة، فكان الصدق في التعبير والعواطف ينجرف فيه الشاعر وراء قلبه، فيصف ألمه واحساسه بالعذاب لفقد من أحبهم، حتى اختلط الرثاء بالفلسفة والحكم والتأملات الانسانية، بل رثوا الانسانية بشكل عام، وأنفسهم بشكل خاص، وغاصوا في وجدانياتهم وتأملاتهم، ورثوا العروبة والأخلاق، لاسيما رثاء الشعراء المعاصرين الذين تجاوزوا النمط الفني الموروث لفن الرثاء الى عوالم أخرى أشد ذاتية ورمزية ورؤى فكرية وفلسفية[37].

ونجد في شعر المهجر الرثاء بقلوب مفعمة بالأسى، صادق التعبير عن الفجيعة في المرثي، ووفاء محض، فرثى الشعراء أقرانهم من الشعراء وذويهم ومحبيهم[38]، إذ يعكس تردد فكرة الموت في نظم شعراء المهجر نزعة رومانسية خالصة كثيراً ما تختلط وتندمج مع صور الموجودات[39]، وعلى وفق هذا تكون عاطفة الحزن بآلياتها اللغوية والبلاغية والمجازية وما فيها من ثنائيات وايقاع أسلوب حجاج وجدال واقناع يتخذ الشاعر من انفعالاته مسارب خطابية نحو المتلقي.

ومن تمثلات عاطفة الرثاء الحزينة في نظم شعراء المهجر الجنوبي قصيدة الشاعر (زكي قنصل) [*] في ابنته (سعاد) التي اختطفها الموت وهي في الشهر الثامن من ولادتها والتي كتبها بمشاعر أبوية أليمة، يقول[40]:

أسعادُ جئتكِ لا بشاشةَ في العيونِ ولا بريـــــــقْ

دَجَتْ الحياةُ وشاه في عينيّ مُحيَّاها الأنيـــــــقْ

لا الروضُ زاهٍ بعد زغلولي ولا غصني وريـــــــقْ

وَيْحي أأغرقُ في الدموعِ فليسَ لي أملُ الغريقْ

.....

أكذا سَتَسْلبُنا الشبابَ يدُ اللّيالي الجائـــــــــــــــرْ

وتبعثُرُ الأيامُ آمالَ الشبابِ الزاهـــــــــــــــــــرْ

وتعيثُ في أحلامهِ الغرِّ الفواتنَ ساخـــــــــــــــرْ

أكذا ستحرمنا النضارةَ والأماني السّاحـــــــــــــرْ

([37]) ينظر: الرثاء في الشعر العربي، سراج الدين محمد، دار الراتب العلمية، موسوعة مبدعون، بيروت، (د.ت): 5-6.
([38]) ينظر: الشعر العربي في المهجر، محمد عبد الغني حسن، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1999م: 82-83.
([39]) ينظر: المعجم الشعري عند جماعة المهجر: 77.
([*]) زكي قنصل(1914-1994)، شاعر مهجري وكاتب مسرحي ولد في بيرود، ثم هاجر عام 1929 وهو في الثالثة عشرة من عمره إلى البرازيل مع والده، وكان أخوه الشاعر والأديب إلياس (1914--1981) قد سبقهما إليها، ثم انتقل الثلاثة في السنة نفسها إلى بوينس آيرس عاصمة الأرجنتين، ثم درس العربية والإسبانية حتى أتقنهما وأصبح قادراً على نظم الشعر فيهما، فترك تجارة الكشة وانضم عام 1935 إلى أسرة تحرير (الجريدة السورية اللبنانية) التي كان يصدرها موسى يوسف عزيزة، وكان شقيقه إلياس رئيساً لتحريرها، صدر للشاعر زكي قنصل عدداً من الدواوين والمسرحيات النثرية في المهجر والوطن، فمن دواوينه «شظايا» 1939 و«سعاد» 1953 و«نور ونار» 1972 و«عطش وجوع» 1974 و«ألوان وألحان» 1978 و«هواجس» 1981 و«في متاهات الطريق» 1984 و«سداسية الوطن المحتل» و«أشواك» ومن مسرحياته النثرية «الثورة السورية» 1939 و«تحت سماء الأندلس» 1965. توفي زكي قنصل إثر انفجار في الدماغ 1994، ينظر: وجوه مضيئة في الأدب العربي الحديث ، عيسى فتوح، دار كيوان، دمشق 2003م: 261.
([40]) شعراء المهجر الجنوبي: 319-321.

يستهل الشاعر أبياته بأسلوب النداء، مخاطباً ابنته بهمزة النداء الدالة على معنى قرب المنادي والمخاطب في سعي واضح منه لإظهار مشاعر الأبوة الصادقة عبر اختزال المسافة بينه وبينها، فكأنما هي مناجاة داخلية رقيقة حزينة شاكية لفعل الموت والفراق في الجسد والروح حتى غدا المعجم الشعري لهذا النص وقد ألبس ألفاظ الأسى والفاجعة المرعوفة المصاحبة لغرض الرثاء، ثم لا يلبث الشاعر كثيراً حتى يتحول لأسلوب الاستفهام متخذاً منه آلية لغوية ليقحم ذاته في اسئلة العبث الوجودي للانسان وفعل القدر والمشيئة القاهرة، إذ يصبح موت الطفلة معادلاً عند الشاعر لفعل الاغتراب، فكلاهما اقتلاع للجذور، وبعثرة للعمر، ونهاية للأماني والأحلام والجسد والروح، فالحزن والأسى والتفجع هنا إنما هو فعل اقناع وخطاب مركب متداخل، ثيمته الأساس الفراق والابتعاد القهري القسري الذي لا يرد، ومن اجل هذه الدلالة الاقناعية سعى الشاعر أن لا يقيم الفواصل بين الموت والاغتراب فكلاهما فعل واحد بنتائج متشابهة موائماً في ذلك بين الغرض الشعري وآلياته اللغوية القائمة على خطابية فجئعية، وأساليب حوارية قائمة على الجدل لأسئلة الحياة المبهمة، واتخاذ صور الفناء للجسد والطبيعة والوجود.

إننا أمام نزعة تجديدية في أساليب الاقناع الرثائية عند شعراء المهجر، خرجوا به عن المألوف، وتجاسروا على حدوده الموروثة لغة وصوراً، فلم يحرقوا قلوبهم بخوراً أمام الأنصاب والأصنام، بل اهتموا بعالم النفس الانسانية وظواهر الحياة وقيمها الروحية، وهذا ما يريد شعراء المهجر تأكيده في دعوتهم[41].

ويودع الشاعر(فارس بطرس)[*] صديقه بقري النبوغ الأدبي المهجري الشاعر (الياس فرحات) [*] بقصيدة قال فيها[42]:

وَدَّعَ الأهلَ والحمى والديـــــــــــارا ناثراً قلبهُ دموعاً ونـــــــــارا

شاعرٌ أنشدَ العروبة أشعـــــــــــاراً ينادي مستنجداً أنصـــــــارا

شاعرٌ ينشدُ القريضَ حنينـــــــــــاً ويناجي الأحلام ليلاً نهارا

يحملُ الأرضَ والمجرة في عينيه نوراً يُسيّرُ الأقـــــــــــــدارا

فمضى ينظمُ القريضَ ضيـــــــــــاءً يتهادى للتائهينَ منـــــــارا

ومضى يرسلُ القوافيَ أنـــــــــــواراً تتلألأُ كأنّها الأسحـــــــــــارا

يلتزم الشاعر في رثائه هذا الصورة الفنية التقليدية لفن الرثاء في ذكر محامد المرثي وصفاته النبيلة، لكنه وعلى سبيل الثناء على الفقيد يبتعد عن الدلالات والمعاني المكررة ذات البعد المعنوي والجسدي الى فضاءات أخرى مدارها وظيفة الشاعر في المجتمع ووقوفه الى جانب الانسانية شعاعاً من النور يقض مضاجع الظلمة، ودليلاً يستنير به التائهون في الحياة من دون هدف، حتى غدا المرثي الممدوح مثالاً للشاعر الملتزم لعقيدته وعروبته ومذهبه الشعري، ومع أن المتلقي لا يلمس في النص ألفاظ الحزن والفجيعة المحضة كما هو معتاد في مثل هكذا نصوص، إلا أنه سيشعر بالحسرة على الفقيد، والتوجع لموته، عبر إظهار أهمية حجم تأثيره الشعري في الآخرين والفراغ الذي تركه، ومهمته التي انتهت فكان خسارة للانسانية والعروبة، عبر نص خطابي خبري خالٍ من الأساليب والدوافع الانشائية، والانزياحات اللغوية، إذ يلتزم الشاعر بوساطة فعله الخطابي الرثائي الاقناعي بطرح فكرة المحاججة التقريرية المعتادة المكتنزة في الفعل(ودَّعَ) والتكثيف الدلالي القار في ذهن المتلقي عن فعل وداع الموت وصورته المعتاة،

([41]) ينظر: الموقف النقدي من الشعر المهجري، سهير صالح أو جلود، مكتبة عدنان، ط1، بغداد، 2012م: 117-119.

([*]) ترجم له: [1]14.

([*]) ترجم له: [3]9.

([42]) شعراء المهجر االبرازيلي: 74.

لكنّه يبتعد لدلالات أخرى متجاوزاً فيها الجسد والصفات المتعلقة بالأخلاق التي دائماً ما تكون بؤرة المدح في الرثاء والفوت والفناء الى معانٍ مرتبطة بوظيفة الشاعر الانسان، العربي، مستنجد الأنصار، دليل التائهين، إنه انزياح دلالي في غرض الرثاء موجب للاقناع والمحاججة على أثر فقد شاعر مثل الياس فرحات، له أثره المهم في الشعر الانساني عامة، والمهجر الجنوبي خاصة.

2-الحجاج بالحزن على الماضي:

الحزن متصل بالوجدان وما فيه توجع، ويصدر عن نفس حزينة ويتصف بصدق الشعور والعاطفة، وله مساحة شاسعة في الأدب العربي، ولاسيما في النظم الشعري في عصوره الأدبية المختلفة، ونتاج مدرسة شعر المهجر الجنوبي، إذ ارتبط شعور التأسف وعاطفته الحزن بالماضي وأنماطه المتنوعة في ماضي الشباب والصبا ومرابع الأهل والأوطان، وماضي الحبيبة المفقودة بالفراق، او الماضي المتصل بالانتماء القومي العروبي في التأسف على التراث المجيد التليد في عصوره الذهبية، وما بين هذه الأنماط تزخر العاطفة بمشاعر الوحشة والفزع من الحاضر المادي في الغربة، وضياع الهوية والانتماء، والأسى على حاضر الأمة المتهالك في شعور قومي وطني انساني يضوع صفاءً وطهراً وانتماءاً[43].

ومن تمثلات لواعج الحزن على الماضي قصيدة الشاعر(إلياس فرحات)[*] الموسومة (بين الطفولة والشباب)، قال فيها[44]:

كمْ مجلسٍ لنا لدى الغديرْ بينَ صداح الطير والخريرْ

وكمْ لنا من موقفٍ خطيرْ في ذلك الصنوبر الشهيـــرْ

نستنشق الحبّ مع الأثيرْ

واهاً على هاتيكِ اللّيالي واهاً على ساعاتها الغوالي

وحبّذا(الغديرُ والحيالى) وما لدى النهرينِ من جمالِ

وما لتلك الأرضِ من جلالِ

يشعر المتلقي في هذا النص الشعري باللهفة الحارة التي تنطلق من صدر الشاعر الى الوطن في حنين ممزوج بعاطفة متقدة الى الأرض التي عاش عليها، ومسرح أيام سعيدة هانئة مرّت به، مسترجعاً في النص كل لحظة من أيام طفولته، مبدعاً في تصوير المناظر والحركات والانفعالات[45]، وهو يعيش حالة المقارنة مع ماضيه وحاضر غربته، مما دعاه الى إصدار الحسرة والتوجع والأسف بأعلى طاقة نفسية ممكنة محاكية لحالته الشعورية بلفظة (آهٍ) التي كررها مرتين لزيادة توكيد معنى التأسف والتوجع والألم، فهذه اللفظة اسم فعل مضارع بمعنى أتألم أو أتوجع، وقد قرنها الشاعر بالماضي الضائع المفقود في امتداد نفسي خارج من ذات مأزومة قلقة، فهي بؤرة الحزن وعاطفة الأسى ودليل إقناع خطابي حاول الشاعر عبره الإقرار ثم التبرير للمتلقي بصدق العاطفة والحنين الى الوطن، ولاسيما أن الشاعر قرن هذه المركزية في التحسر وخطابه الاقناعي على الأداة(كم الخبرية) التي تفيد المبالغة في الكثرة، وهذا إثبات لمدى التأسف على الماضي والحنين اليه، إذ إن المبالغة في ذكر الماضي دليل نفسي عاطفي على الميل والانعطاف لمرتكزات ذهنية قارة في الذهن تستدعيها المشاعر للتعويض عن الحاضر المؤلم المعيش.

([43]) ينظر: القومية والانسانية في شعر المهجر الجنوبي: 63 ومابعدها؛ وينظر ايضاً: شعراء العصبة الاندلسية: 181 ومابعدها؛ وينظر: أدب المهجر: 238-246.

(*) ترجم له: 39.

([44]) الياس فرحات، شاعر العرب في المهجر، سمير بدوان قطامي، دار المعارف، مصر، (د.ت): 192-193.

([45]) المصدر نفسه: 192-193.

وفي هذا النوع من الخطاب يقوم النص على إثارة انفعالات المتلقي وإغرائه طلباً لتحفيزه عبر نوازع الاعجاب الكامنة فيه، ولاسيما ما يتعلق بالجانب العقائدي والوطني، وإن كان في مجال عقد المقارنة بين زمنين يقع فيهما النص ماضياً وحاضراً[46].

وفي المعنى ذاته والدلالة عينها يطالعنا الشاعر(فوزي المعلوف)[*] في قصيدته (وداع لبنان)، يقول[47]:

كمْ عشقْنا الحياةَ فوق ذراها وعبدنا الجمالَ فوق واديها

ورتَعْنا والغيدَ ما بينَ شهـــــدٍ نحتسيهِ ووردةٍ نجتنيهـــــا

وعلينا من الخيالِ جنـــــــــاحٌ يحتوينا معاً كما يحتويها

ولنشيِّعْ من بعدها كلَّ أُنسٍ ولتحطمْ قيثارة الشعر فيها

تلزم لحظات الوداع الشاعر بعواطف الحزن والألم، وتأخذه الى ثيمة الأسى بمعجم شعري فاضح التوجع عبر صور التذكر المتكئة على الأداة(كم الخبرية) الدالة على الكثرة، فهي أداة الربط بين الحاضر والماضي، الماضي بحياته وعشقه وخياله الجامح، وأيام الأنس، والحاضر وما فيه من ألم الغربة، فالخطاب الشعري هنا وسيلة حجاجية أراد الشاعر بوساطتها كسب ود المتلقي نحوه، ولاسيما مع الايقاع الحزين المتدفق لحرفي القافية والروي(ها) الدالة على معنى الحزن والتأوه والتحسر والتوجع، وبذلك حمل للمتلقي على قبول كلام الشاعر والتأثر به، والقناعة بما يريد إيصاله من أغراض عبر وسيلة الالم والتأوه التي يحاجج بها.

الخاتمة: في نهاية البحث ندرج أهم النتائج التي توصل إليها، وبحسب الاتي:

1-توصل البحث الى أنَّ شعر العصبة الاندلسية شعر المهجر الجنوبي كسائر الشعر العربي، له فكره وله سماته الخاصة المميزة له، ومنها السمات النفسية التي يتصف بها.
2-إنَّ هذا الشعر تجلى فيه الحجاج ببعده النفسي بشكل واضح، وذلك عبر النماذج الشعرية المختارة التي أدرجها البحث وحللها وأثبتها.
3-إنَّ الحجاج النفسي في هذا الشعر لا يقتصر على جانب واحد، بل تمثل بمظاهر متنوعة ومنها: حب الامومة وحب الحبيبة. ومنها: الحزن على الاحبة والحزن على الماضي.
4-إنَّ شعر العصبة الاندلسية مؤثر يأخذ المتلقي الى حريم تقبل الفكر والاندماج فيه والافادة منه، إذ يوظف الشاعر في سياق هذا الشعر كل ما يمكنه إحداث الاثر في قارئه، عبر الاسلوب النفسي، كما ثبت ذلك في طيات البحث.

([46]) ينظر: الخطاب السجالي: 85-86.
([*]) ترجم له: 25.
([47]) الاعمال الشعرية الكاملة: 97-98.